تمهيد

نزل القرآن على الرسول العربى محمد صلى الله عليه وسلم واضحاً مبيناً، واتخذ منهجه مناداة الفطرة، وبذلك كان قريباً إلى عقول الناس الذين نزل فيهم وقلوبهم، غير أن الآثار الأدبية يتناولها الناس فهماً كل بحسب درجته العقلية . فإذا ما كان الأثر الأدبى كتاباً إلهياً فى درجة عالية من البلاغة لا يرتقى إليها خصيب المعنى عميقه فإنه لاشك يفسح مدى متفاوتاً بين الناس فى قدر تفهمهم له، وهذا لا يطعن بحال فى القرآن ما دام الناس متفاوتين فى الرقى العقلى تبعاً للفطرة والاكتساب ، بل إن الشخص الواحد تتباين مراتب تفكيره فى أطوار حياته . وإذن كان القرآن بحاجة إلى من يرجع إليه فيوضح ما أجمل من معانيه ويقرب ما بعد عن الفهم منها . ومن ثمَّ فطبيعى أن يكون أمين الله على وحيه مفسراً لكتابه، يقول تعالى : (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آيتنا ويزكيكم ويعلّمكم الكتابَ والحكمة ويعلمكُم ْ ما لم تكونوا تعلمون)[1] .

كان الرسول المفسر الأول يبين معنى المجمل من القرآن . هذا رجل يسأل الرسول يقول : أرأيت قول الله : (كما أنزلنا على المقتسمين) فيقول الرسول : اليهود والنصارى . فيقول الرجل : (الذين جعلوا القرآن عضين) ما عضين؟ فيقول الرسول : « آمنوا ببعض وكفروا ببعض »[2] ، ويقرب المعنى فأبو بكر يقول للرسول : يا رسول الله كيف الصلاح بعد هذه الآية : (ليس بأمانيكم ولا أمانىّ أهلِ الكتاب من يعملْ سُوءاً يُجْزَ به . . .) فكل سوءٍ عملنا جزينا به ؟ فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : غفر الله لك يا أبا بكرٍ ؛ ألست تمرض ؟ ألست

---

(١) سورة البقرة آية ١٥١ .

(٢) الإتقان للسيوطى ج ٢ ص ١٩٨ س ٢٢ . مطبعة حجازى سنة ١٣٦٨ هـ . سورة الحجر آيتا ٩٠ ، ٩١ .

تنصب ؟ ألست تحزن ؟ ألست تصيبك اللأواء ؟ ... فهو ما تجزون به[١] . وكان الرسول كذلك يوضح معنى اللفظ الغريب فى القرآن[٢] . عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . السائحون هم الصائمون[٣] . وعن عمر بن الخطاب عن النبى صلى الله عليه وسلم : (أقم الصلاة لدلوك الشمس ...) قال : لزوال الشمس[٤] . ولم يكن الناس بحاجة إلى أن يبين لهم الرسول مناسبات النزول . فالأحداث التى تنزل فيها الآى تجرى بين أعينهم وتتناقلها أسماع العرب وأفواههم فى أنحاء الجزيرة العربية ، ولا هم بحاجة إلى أن يقفوا طويلا أمام متشابه القرآن يحكمون منطقهم لأن عقولهم على فطرتها لم تألف تعمقاً أو لجاجًا فى تفكير فلسفى .

ولما شاء الله أن يتم الرسول رسالة ربه وانتقل إلى الرفيق الأعلى نهض من بعده تلاميذه من الصحابة ؛ أولئكم الذين شغلتهم أمور الإسلام حين انبثاق نوره ؛ فشهدوا الوقائع ، وصحبوا الرسول يتأثرونه فى قوله وعمله . فلما مات تفرق بعض فى الأمصار وولى بعض أمور الخلافة . وشغل الجميع بتطبيق أحكام الإسلام تطبيقاً عمليًّا مسترشدين بنصوص القرآن أو السنة والرأى أو الشورى حين لا نص ؛ فلم يكن لديهم المتسع من الوقت ليفسروا القرآن غير هذا التفسير العملى . وما أثر عنهم من التفسير فقليل اللهم إلا على بن أبى طالب الذى نسبت إليه الشيعة كثيراً مما ليس له .

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ج ١ ص ١٨٢ . طبعة المعارف سنة ١٣٦٨ هـ (سورة النساء آية ١٢٣) .

(٢) منشأ الغرابة فيما عدوه من الغريب أن يكون ذلك من لغات متفرقة . أو تكون الألفاظ مستعملة على وجه من وجوه الوضع يخرجها مخرج الغريب كالظلم والكفر والإيمان ونحوها مما نقل عن مدلوله فى لغة العرب إلى المعانى الإسلامية المحدثة أو يكون سياق الألفاظ قد دل بالقرينة على معنى معين غير الذى يفهم من ذات اللفظ كقوله تعالى : (فإذا قرأناه فاتبع قرآنه) أى فإذا بيناه فاعمل به (إعجاز القرآن للرافعى ص ٨٥ الطبعة الثالثة — مطبعة المقتطف والمقطم بمصر سنة ١٣٤٦ هـ — ١٩٢٨ م) .

(٣) الإتقان للسيوطى ج ٢ ص ١٩٦ س ١٢ (سورة التوبة آية ١١٢) .

(٤) الإتقان للسيوطى ج ٢ ص ١٩٨ س ٣٣ (سورة الإسراء آية ٧٨) .

ولكن فتى طموحاً — هو ابن عباس — بهره أول ما تفتحت عيناه على الحياة ؛ نور الإسلام وأحداثه ... قرآن وحديث ؛ معارك بين الشرك والتوحيد ؛ قلة مع الرسول تنتصر وكثرة مع الشرك تنهزم . وأيفع الفتى فإذا الإسلام يبسط ذراعيه على الجزيرة العربية وإذا دولة إسلامية قوية تنهض من ضعف وفوضى ليتهاوى على قدميها تاجا سيدتى العالم : فارس والروم ؛ ثم إذا نفوس تصفو كدرتها جفاوة الجاهلية ، وإذا جيوش المسلمين تندفع مشرقة ومغربة تبث نور الإسلام حيث تحل . ثم لا ننسى صلة الرحم التى تربط الفتى ابن عباس ببطل هذه الأحداث ، ولا أن ميدان هذه الأحداث العظام هو موطن هذا الفتى ومراحه .

توفى الرسول ولما يتخطى هذا الفتى السابعة عشرة من عمره[١] . فأكب يدرس نور هذه الثورة : القرآن ؛ يدرسه من كل نواحيه . وكان بحق أول باحث يمثل حاجة الجيل الذى تلا جيل الرسول ؛ يمثل حاجته إلى الوسائل والأسباب التى يستعينون بها على فهم القرآن وملابساته وقد تباعد شيئاً عصر الثورة عنهم .

اتجه ابن عباس حين ألمت بالمسلمين فادحة وفاة الرسول إلى ميدان البطولة الإسلامية ؛ إلى المدينة يجمع الحديث ، والحديث آنئذ هو الشجرة التى تتفرع عنها أفنان المعرفة الإسلامية . يقول ابن عباس : إنه وجد عامة علم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الأنصار[٢] ، فبالحديث استطاع ابن عباس أن يعرف سبب النزول أو فيمن نزلت الآى ، وهذه المعرفة مما يجلى معانى الآى ويلقى الضوء عليها . ولهذا نجد اسمه يدور كثيراً فى أقدم مرجع بين أيدينا يبين سبب النزول وهو سيرة ابن إسحاق[٣] . وإذن كان السبب الأول من أسباب التفسير عند ابن عباس

---

(١) يقول ابن حجر فى الإصابة جـ ٢ ص ٨٠٢ طبعة كلكته سنة ١٨٨٨ م : (ولد ابن عباس قبل الهجرة بثلاث وقيل بخمس والأول أثبت وهو يقارب ما فى الصحيحين) وفى الاستيعاب فى معرفة الأصحاب لابن عبد البر جـ ١ ص ٣٨٤ طبعة حيدر آباد سنة ١٣١٨ هـ (وفى أصح الروايات أن الرسول توفى وهو ابن ثلاث عشرة سنة) .

(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر جـ ١ ص ٩٦ إدارة الطباعة المنيرية .

(٣) سيرة ابن هشام طبعة السقا سنة ١٩٣٦ م جـ ١ ص ٣٢٠ و ٣٢١ و جـ ١ ص ٣٣٠ — ٣٣٤ .

هو معرفة المناسبات والملابسات التى نزل فيها القرآن . سبب آخر لجأ إليه ابن عباس — وسبق به اللغويين — فى التفسير ذلك هو الشعر يستعينه على معرفة عادات العرب وعلى معرفة معنى اللفظ القرآنى ويهدى بذلك كله فى التفسير الذى يصوغه فى قالب أدبى معجب[١] ؛ كذلك كان يلجأ ابن عباس إلى أهل الكتاب يستمد منهم التفسير القصصى للقرآن[٢] ، غير أن موقفه من الكتابيين كان موقف الناقد المعتز بدينه الذى ينخل ما ينقل إليه[٣] .

ولكن كان ابن عباس حين يفسر بأدواته الثقافية هذه إنما يفسر بها فى دائرة المأثور المروى . كان ابن عباس إذا سُئل فإن كان فى القرآن أخبر به فإن لم يكن وكان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر به فإن لم يكن وكان عن أبى بكر وعمر أخبر به فإن لم يكن قال برأيه[٤] وكان يخشى الرأى يقول : إنما هو كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فمن قال بعد ذلك شيئاً فما أدرى أفى حسناته يجده أم فى سيئاته[٥] .

وانقضى عصر الصحابة والتابعين وابتدأت تتميز فى تاريخ التفسير مناهج فى تناول المعنى القرآنى منها المنهج اللغوى والمنهج النقلى والمنهج التأويلى سواء كان عقلياً كلامياً أو صوفياً وجدانياً ثم التفسير القصصى . فأما المنهج اللغوى فقام إثر استحالة اللسان العربى أعجمياً فى حركة الفتح الإسلامى . يقول ابن الأثير : « لما فتحت الأمصار وخالط العرب غير جنسهم امتزجت الألسن ونشأ بينهم الأولاد فتعلموا من اللسان العربى ما لا بد لهم فى الخطاب وتركوا

---

(١) راجع مسائل نافع بن الأزرق فى الإتقان للسيوطى ج ١ ص ١٢١ — ١٣٤ . وخبر يصور إعجاب الناس بابن عباس المفسر نجده فى تفسير الطبرى ج ١ ص ٢٩ .

(٢) مثال هذا أسئلته لأبى الجلد فى تفسير الطبرى ج ١ ص ١١٧ و ص ١١٨ و ج ١٣ ص ٨٢ وأخبار عن أبى الجلد هذا فى طبقات ابن سعد ج ٧ ص ١٦١ قسم أول . طبعة أوربا .

(٣) يقول ابن عباس : إن ذبيح إبراهيم المفدى هو إسماعيل وزعمت اليهود أنه إسحق وكذبت اليهود (العرائس) للثعلبى ص ٩٥ .

(٤) الإصابة لابن حجر ج ٢ ص ٨١٠ .

(٥) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ج ٢ ص ٢٦ .

ما عداه. وتمادت الأيام إلى أن انقرض عصر الصحابة وجاء التابعون فسلكوا سبيلهم، فما انقضى زمانهم إلا واللسان العربى قد استحال أعجمياً »[١]. وقد قام اللغويون حفاظاً على لغة القرآن يضربون أكباد الإبل إلى البادية يستفسرون عن لفظ أو يقفون على تعبير ودعاهم ذلك إلى حفظ الأشعار ففيها أحياناً ما يفسر لفظاً قرآنياً أو يساعد على فهم تعبير قرآنى فأكثروا من رواية اللغة والأشعار لذلك دققوا فيها وتحروا الموضوع من الصحيح . . . وعنوا بلهجات العرب لتفهم قراءات القرآن كما عنوا بالمعرب والأصيل لما فى القرآن من معرب وأصيل[٢]. ولما كانت مرحلة تدوين العلوم رأيناهم يؤلفون كتب المعانى فى تفسير غريب القرآن وتوجيه قراءاته ومن أقدم ما ألف فيما نعلم — كتاب معانى القرآن للرؤاسى[٣] وقد كان الرؤاسى أستاذاً للكسائى والفراء[٤]؛ وقد أورد صاحب الفهرست من قام من اللغويين بتأليف كتب فى موضوع (معانى القرآن)[٥] .

وقام المنهج التأويلى فى القرآن الثانى الذى نشأت فيه الفرق الدينية الإسلامية وأخذت تنظر إلى القرآن من خلال فكريّاتها وكان لها نشاطها الملحوظ فى ميدان التفسير وبخاصة المعتزلة ، وسنعرض بعد لظروف نشأتها وضروب نشاطها الفكرى . وقد اتخذت المعتزلة أداة المعرفة العقل الذى يجمح ولا يخضع لعاطفة . وفى هذا القرن أيضاً أخذ التصوف ينشأ ويترعرع فى ظروف عدة ، منها : الحروب الأهلية الطويلة الدامية التى وقعت فى عهد الصحابة وبنى أمية ؛ والتطرف العنيف فى الأحزاب السياسية ؛ وازدياد التراخى والاستهانة فى المسائل الخلقية ؛ وما عاناه المسلمون من عسف الحكام والمستبدين الذين يملون إرادتهم وآراءهم

---

(١) النهاية لابن الأثير ج ١ ص ٣ ، ٤ المطبعة العثمانية بمصر سنة ١٣١١ هـ .

(٢) ضحى الإسلام ج ١ ص ٣٢٨ و ٣٢٩ ط سنة ١٣٥٧ و ج ٢ ص ٢٥٥ — ٢٥٧ . سنة ١٣٥٧ هـ .

(٣) معجم الأدباء ج ١٨ ص ١٢٥ ط ١٣٥٧ هـ .

(٤) معجم الأدباء ج ١٨ ص ١٢٢ والكسائى توفى سنة ١٨٢ أو سنة ١٨٣ أو سنة ١٦٢ على خلاف . (معجم الأدباء ج ١٣ ص ٢٠٢) أما الفراء فوفاته سنة ٢٠٧ هـ .

(٥) الفهرست لابن النديم ص ٥١ و ٥٢ . المطبعة الرحمانية بمصر .

الدينية على غيرهم ممن أخلصوا فى إسلامهم؛ورفض هؤلاء الحكام علانية كل فكرة تتصل بالخلافة الدينية التى حاول المسلمون إرجاعها[١]؛ثم موجات الشك والتعصب العقلى التى طغت على المسلمين فى العصر العباسى الأول والتطاحن المرّ بين أصحاب المقالات والفرق والجمود على مذهب أهل السنة من جانب العلماء[٢]–تحت تلك العوامل كلها وجد الصوفية واتخذوا الإدراك الذوقى الذى لا أثر للعقل فيه آلة المعرفة ، ومن أقدم تلك التفاسير الصوفية التى تمثل منزعهم فى التفسير تفسير أبى محمد سهل بن عبد الله التسترى (المتوفى سنة ٢٨٣ هـ) الذى نراه فى تفسيره يفيض من فهمه الروحى وكشفه الوجدانى معانى على تفسير القرآن .

ووجد فى تاريخ التفسير التفسير القصصى ،ودعا إليه أن منحى القصص فى القرآن منحى نفسانى لا يمس إلا جانب العظة والدرس والعبرة ، لذلك يتناول من القصة الواحدة جزئياتها التى تلائم جو الدرس والتذكير ،والنفوس بطبعها طلعة لا تكتفى باللمحة ؛ إنما تريد أن تشبع بالتفصيل،وتفصيل القصص القرآنى فى التوراة أو الإنجيل،فاتجه المفسرون القصصيون إليهما . وتسربت الروايات والقصص المستمدة من الأخبار اليهودية والنصرانية إلى التفسير القصصى الإسلامى إما عن طريق من أسلم من أهل الكتاب مثل تميم الدارى وكان نصرانيًّا فأسلم[٣] ومثل كعب الأحبار وكان يهوديًّا فأسلم . أو عن طريق اطلاع بعض المسلمين على كتب أهل الكتاب فعبد الله بن عمرو بن العاص كان يقرأ الكتابين التوراة والفرقان[٤] وأبو نعيم يسوق فى حليته عظة استقاها عكرمة من التوراة بدؤها « يا سماء أنصتى ويا أرض استمعى . . . » والنص من العهد

---

(١) فى التصوف الإسلامى لنيكولسون تعريب أبو العلاء عفيفى ص ٤٦ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٦ هـ ١٩٤٧ م .

(٢) فى التصوف الإسلامى لنيكولسون تعريب أبو العلاء عفيفى ص ٧٢ .

(٣) الاصابة لابن حجر ج ١ ص ٢٧٢ .

(٤) حلية الأولياء لأبى نعيم ج ١ ص ٢٨٦ ط سنة ١٣٥١ هـ مطبعة السعادة .

القديم سفر أشعياء الإصحاح الأول[١]. وأخذ التفسير القصصى يتضخم مع أن القصص القديم قصص يندر تيقن صحته ؛ وتضخم لأن مصدره عوام غير ثقات كما يقول ابن خلدون[٢] ، فأرادوا أن ينفق سوقهم وهم مصدر تلك الأخبار لذلك ابتكروا وتخيلوا وزاد الرواة عليهم ،وتتابعت العصور حتى صرنا أمام ركام هائل من التفسير القصصى جمعه فى واد واحد الثعلبى (المتوفى سنة ٤٣٠ هـ) فى كتابه (العرائس) .

والتفسير منذ أول أمره إلى العصر العباسى قد اتخذ شكل الحديث بل كان جزءاً منه وباباً من أبوابه وقد كان الحديث هو المادة الواسعة التى تشمل جميع المعارف الدينية ؛ فهو يشمل التفسير ويشمل التشريع ويشمل التاريخ ،وكانت كلها ممتزجة بعضها ببعض تمام الامتزاج[٣] وقد قام الطبرى متأثراً فى ذلك علماء القرن الثالث يفرد التفسير من الحديث كما أفرد مالك أحاديث الأحكام فى الموطأ ومحمد بن إسحاق أحاديث السيرة فى كتابه عن السيرة النبوية . ثم اتخذ الطبرى منهجاً فى التفسير القرآنى وفى اختيار التفسير النقلى المفرد من الحديث وكان للموقف الذى واجهه الطبرى فى عصره أثره فى تحديد هذا المنهج ؛ كانت هناك مذاهب كلامية تتصارع مستنصرة بالحديث والقرآن[٤] ؛ وأحزاب سياسية تتناحر مستعينة بالقرآن والحديث ؛ وفقهاء يختلفون فى فروع الفقه الإسلامى بين أهل رأى وحديث ، ويضعون أحاديث لملء الفراغ الذى لم يرد فيه حديث[٥] ؛ثم أهل ديانات قديمة يدسون من دياناتهم وعقائدهم خفية فى التفسير والحديث وقصاص

---

(١) حلية الأولياء جـ ٣ ص ٣٣٨ و ٣٣٩ والكتاب المقدس ص ٩٩٢ و ٩٩٣ مطبعة جمعية التوراة البريطانية والأجنبية – (المطبعة الجامعية بكامبردج) .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٣٨٣ و ٣٨٤ – المطبعة البهية المصرية .

(٣) ضحى الإسلام جـ ٢ ص ١٣٧ .

(٤) ليس من فرقة دينية إلا وتستنصر لرأيها بالحديث كما يرى الناظر إلى كتاب حجج القرآن لجميع أهل الملل والأديان لأبى الفضل الرازى . وانظر تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٢ و ٣ .

(٥) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٩٦ . طبعة كردستان العلمية سنة ١٣٢٦ هـ .

يدخلون متخيلاتهم ومسموعاتهم من أهل الكتاب فى التفسير ووعاظ يبغون التأثير فيتسمحون بكل شيء فى سبيل غايتهم . وكان على الطبرى بعدئذ أن ينقى جو التفسير وقد تشبع بآثار هذا كله .

تلك هى المناهج التى اتخذت سبيلها فى تاريخ التفسير القرآنى وهى كلها نستطيع أن نمثل لها بمؤلفات تفسيرية حيت وأبقى عليها الزمن الذى أضاع مؤلفات مفسرى المتكلمين على كثرتها وضخامتها — كما سنعرض لذلك بعد — لقد اندثرت آثار المتكلمين فى التفسير وبقى أثر تفسيرى واحد كامل لهم هو تفسير الكشاف للزمخشرى الذى يمثل أصدق تمثيل منزع المتكلمين فى تفسيرهم للقرآن ويعالج إعجاز القرآن على نحو لم نألفه فى تفسير من التفاسير التى بين أيدينا اليوم .

ونحاول فيما يستقبل من أبواب وفصول أن نتعرف إلى هذا المؤلف التفسيرى ونترسم خطا صاحبه فيه .